12

آخرة النسانيس !

قال سندباد :

ظل النسانيس ساجدين فوق الصخرة ونحن ننحدر إلى الوادي؛ فلما صرنا عند السَّفح نظرنا وراءنا، فرأيناهم ما يزالون ساجدين، فقال الشيخ : الآن قد صار شعب النسانيس كله فوق الصخرة !

قلت : ماذا تعني؟

قال : لا تُكثر السؤال يا سندباد، واذهب فاجمع حطبًا وخشبًا وعشبًا يابسًا لنجعله حول الصخرة، وأرجو أن يكون معك كبريت !

ففهمتُ قصده وقلت مستنكرًا : أتريد أن نشعل النار حواليهم ؟

فأجابني بغلظة : قد أمرتك؛ فأطع أمري بلا مناقشة !

وقد بدا لي الشيخ في تلك اللحظة غليظًا قاسيًا وحشيَّ المنظر كأنه نسناس من النسانيس لا إنسان من الناس، وكانت العصا في يده تمثل لي منظرًا آخر رأيته منذ لحظات وهو يرفعها فوق رؤوس النسانيس فيمتثلون لإرادته ويخرون ساجدين، فكأنما خُيِّلَ إليه أنه يراني نسناسًا من رعيَّته فلست أملك مثلهم إلا الطاعة، ولكني أبيت أن أطيع وقلت له : اذهب أنت فاجمع الحطب إن شئت لتحرقهم، فإني لا أطيق أن أشارك في هذه الجريمة !

قال : سأذهب وتبقى أنت؛ فإني أخشى لو ذهبنا جميعًا أن يرفعوا رؤوسهم فلا يرونا، فربما بدا لهم أن يتبعونا أو يتمردوا علينا، في كون الشر الذي نخافه !

ثم مضى ليبحث عن الوقود وتركني؛ فنظرت إلى النسانيس وهم ساجدون فوق الصخرة، فخشيت أن يرفعوا رءوسهم كما توقَّع الشيخ فلا يروا أحدًا غيرى، فربما بدا لهم أن يصيبوني بالأذى؛ فامتلأ قلبي رعبًا، وهممت أن أتبعه إلى حيث ذهب، ولكني خشيتُ أن يُشجِّعهم هذا على الشر أكثر مما يشجعهم وجودي وحدي؛ فبقيت حيث كنت، وعيناي معلقتان بهم، وقلبي يخفق خفقًا شديدًا.

ومضت لحظات، ثم حدث ما كنت أحذره، إذ رفعوا رؤوسهم واحدًا بعد واحد، ثم تلفَّتوا حواليهم يبحثون عن الأمير، فلم يروه ورأوني فترددوا برهةً، ثم أخذوا يتواثبون نحوي . . .

يا للشر الفادح ! من أين لي الخلاص من هذا المأزق الخطير؟

كذلك سألتُ نفسي وعيناي زائغتان وأنفاسي متتابعة، وهم يقتربون منِّي وثبةً بعد وثبة، فهممت أن أجري؛ ولكنَّ الشيخ أقبل في تلك اللحظة وهو يحمل على كتفيه حملًا ضخمًا من الحطب والخشب ولحاء الشجر اليابس؛ فلما وصل إلى حيث كنت، ألقى حمله عن كتفيه، ثم جعله كالقوس حول الصخرة، وقال لي: أشعل كبريتًا يا سندباد !

ولم يكن معي كبريت، ولم يخطر ببالي من قبل أنني أحتاج إلى كبريت فأستعد لمثل هذا الموقف؛ ولكن الشيخ لم ييأس، فأمسك حجرين يدقهما ليقدح شرارًا، فلم يلبث العشب الجاف أن اشتعل ثم امتدت ناره إلى ما حواليه، ثم اشتعل الحطب والخشب ولحاء الشجر فإذا الصخرة التي تجمَّع النسانيس فوقها كأنها جزيرة في بحر من النار !

وهبَّت الريح في تلك اللحظة، فزادت النار اشتعالًا وزادت رقعتها اتساعًا، إذ كانت الأرض في ما حوالينا كثيرة العشب اليابس؛ ورأيت النسانيس في تلك اللحظة وهم يتجمعون ثم يتفرقون ثم يتواثبون إلى هنا وهنالك، يريدون أن يخرجوا من نطاق النار الذي يحيط بهم، ولكنهم لا يجدون مخرجًا؛ فأيقنت أن شعب النسانيس لا بد أن يحترق وينجو الناس من شره !

وتذكرت في تلك اللحظة أبى شهبندر وما فعله النسانيس به، فامتلأ قلبي حقدًا عليهم وشماتةً بهم، وتجردت نفسى من كل عوامل الرحمة والعطف . . .

ولكن النار التي أشعلناها لنحرق بها النسانيس لم تلبث أن أحاطت بنا، فإذا نحن في وسطها؛ ذلك لأن الأعشاب اليابسة تحت أقدامنا وفيما حوالينا لم تلبث أن امتدت إليها النار فاشتعلت، ثم اتسع نطاقها فيما حوالينا حتى انحصرنا مثل النسانيس في بحر من النار . . .

وبدا لي في تلك اللحظة أن آخرتنا وآخرتهم واحدة، هي أن نموت جميعًا محترقين بالنار.

ولكن الله لطف بنا، فلم تلبث نار الأعشاب تحت أقدامنا أن انطفأت؛ أما نار الخشب والحطب التي تطوق الصخرة فظلت مشتعلة، والنسانيس فوق الصخرة يتواثبون إلى كل ناحية يحاولون النجاة بأنفسهم من النار المشتعلة فلا يجدون مهربًا . . .

وأيقن النسانيس أنهم من الهالكين، وأن النار لابد أن تأكلهم فلا تترك منهم لحمًا ولا شحمًا ولا عظمًا فتشجَّع بعضهم ووثبوا إلى البحر لينجوا من النار، فابتلعتهم الأمواج وغرقوا؛ وحاول بعضهم أن يخترقوا نطاق النار المشتعلة لينحدروا من فوق الصخرة إلينا، فلم يكادوا يدخلون في اللهب حتى ذابوا ثم اختفوا عن عيوننا؛ وظل الباقون يتواثبون فوق الصخرة يائسين حتى ارتفع الدخان فسترهم عن عيوننا . . .

ثم انطفأت النار، وانقشع الدخان، وصفت السماء؛ وأنا والشيخ واقفان عند السفح ننتظر الخاتمة؛ فلما رأينا النار وانقشاع الدخان وصفاء السماء، أخذنا نتقدم إلى الأمام خطوةً خطوة، على خوف وحذر لنعرف كم مات من النسانيس وكم بقي . . .

وصعدنا فوق الصخرة، فلم نر إلا ترابًا وعظامًا مفحَّمة؛ والحقُّ إنني شعرت في تلك الحظة بانقباض وضيق؛ إذ بدا لي مقدار القسوة التي عاملنا بها ذلك الشعب البائس، ولكني حمدت الله في الوقت ذاته، لأنه خلَّص العالم من شر النسانيس !

وكانت الأرض لم تزل دافئةً تحت أرجلنا، كأننا نمشي على ظهر فُرنٍ مشتعل؛ وكانت رائحة اللحم المحترق تملأ أنوفنا؛ فكأنما تذكرَّ الشيخ في تلك اللحظة ذكرى، فقال لي: أليس يشوقك يا سندباد في هذه اللحظة أن تأكل خبزًا طريًّا وكبابًا مشويًّا ؟

فتراجعتُ إلى الوراء قائلًا : أعوذ بالله! كيف يخطر على بالك الآن ذكر الكباب المشويِّ والعيش الطري ؟

فغضب الشيخ وقال عاتبًا : كيف توجِّه إليَّ مثل هذا القول يا سندباد، وأنا شيخ مثل أبيك؟ وإنما حدثتك ذلك الحديث لأسليك وأدخل في نفسك بعض المسرَّة في هذا الموقف المؤلم !

قلت كالمعتذر : ولكنْ ما ذكرُ الكباب المشويِّ والعيش الطريِّ في هذه المناسبة ؟

قال وعلى فمه ابتسامة : في بلادنا، حين تجتمع نساء الأسرة للخبيز في كل أسبوع مرة، يشوين في أعقاب كل خبْزَة لحمًا؛ فنأكل في ذلك اليوم الكباب المشوي بالخبز الطري، وننام على ظهر الفرن الدافئ، فتكون أكلةً ونومةً نتمناها كل أسبوع مرة !

قلت لأصرفه عن بعض ما كان فيه من الغضب : وأنا والله أتمناها ولكن أين منا الآن خبزٌ طريٌّ ولحم مشويّ؟

وسمعت ورائي حسًّا في تلك اللحظة، فسكتُّ والتفتُّ ورائي؛ فإذا نسناس حيٌّ يرفع رأسه بين الأشلاء المحترقة، فتراجعتُ مذعورًا وأنا أقول للشيخ نسناس!

ونظر الشيخ إلى حيث نظرت، فرآه، فأسرع إليه، وتبعتُه غير خائف ولا حذر؛ وأدهشني أنه كان سليمًا معافى صحيح البدن كأن النار لم تمسه، ولكن دهشتي زالت حين رأيت ثيابه مبتلَّة، فعلمت أنه كان في الماء، فلم يصعد إلى الصخرة إلا بعد انطفاء النار المشتعلة . .